الاسلام بين الرسالة والتاريخ

وليد نويهض

يبرز استاذ الفكر الإسلامي والحضارة العربية في كلية الآداب(جامعة تونس الأولى) "عبد المجيد الشرقي" تأليف كتابه "**الإسلام بين الرسالة والتاريخ**" بالدعوى إلى التعريف بخصائص الرسالة من منظور يطمح إلى أن يكون وفيّاً لمقاصدها الأساسية، ومن ثم دراسة التأويلات تأويلاً مخصوصاً من خلال "نماذج من الإكراهات التي ألزمتهم بتأويل معين، من بين التأويلات العديدة المتاحة نظرياً".

ويعترف الكاتب أن الإسلام نجح في أن يتكيف، مع أوضاع مختلفة متناقضة" ولا أحد بإمكانه "أن يدعي أن إسلامه هو أفضل من اسلام غيره".

وعلى هذا يحاول الشرقي أن يطبق "على الإسلام نتائج البحث الحديث ومناهجه" ويلخص تلك المناهج، في أربع ثورات علمية كبرى عرفتها البشرية، منذ عصر النهضة الأوروبية وهي: أولاً، اكتشاف كوبرنيك أن الأرض ليست محور العالم، ثانياً، رسوخ نظرية التطور منذ داروين. ثالثاً، ما أتى به فرويد ومدرسة التحليل النفسي من استدلال على أن سلوك الإنسان لا تتحكم فيه إرادته الواعية فحسب. رابعاً، ما يشهده العالم اليوم من تطور مذهل للبيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية.

ويضيف المؤلف إلى الثورات الأربع الكبرى، "الإنقلاب الحقيقي في سبل العيش الذي تحقق بفضل تقدم الصناعة، والعلوم التطبيقية" الرخاء المادي، و"سرعة المواصلات ووفرة المعلومات وغير ذلك من المظاهر".

يراهن الكاتب على المستقبل وينتقد الدراسات الدينية، لأنها "كانت في الأغلب حكراً على ذوي الثقافة التقليدية" ويهاجم المجتمعات الإسلامية المعاصرة، لأنها "متخلفة حضارياً لا تتفاعل إيجابياً مع ما تنتجه المجتمعات المتقدمة في ميادين العلوم والمعارف".

ووفق المنظور المذكور يبدأ المؤلف "المتفاعل" مع عصره في إعادة قراءة الإسلام في ضوء منهجية مركبة من اربع مدارس "أكل الدهر وشرب" على ثلاث منها. وكتب عنها، وحولها وفيها عشرات الدراسات، وطمعت للتوفيق

بينها، وبين الإسلام (كوبرنيك، وداروين، والتحليل النفسي). وسجل التاريخ الإسلامي عن الهندسة الوراثية عشرات المخطوطات عن تلك المسألة، وكتب عنها علماء وفلاسفة اختلفوا عليها من الكندي والرازي(الفيلسوف) والفارابي، وابن سينا، وصولاً إلى ابن خلدون الذي أرّخ لتلك الخلافات وصاغها في بحث مستقل في مقدمته الشهيرة.

واعتبر ابن خلدون أن أساس الاختلافات يعود إلى سببين: اجتماعي (طبقي) وفلسفي. فالفقراء من العلماء والفلاسفة كانوا يؤمنون بنظرية تحول المعادن (تغيير النحاس إلى ذهب مثلاً، بينما الأغنياء منهم رفضوا النظرية بداعي أن جوهر المعادن ليس واحداً.

أما الخلاف الفلسفي فكان يعود إلى الأساسي النظ... (العقدي) لكل فيلسوف أو مجتهد. فمن اعتقد بوحدة الوجود اقتنع بإمكان الحلول والتحول. ومن اعتقد أن الوجود على مراتب رفض احتمال التحول والحلول والاتحاد لأن كل معدن هو جوهر(فرد) مستقل في خصائصه. المهم أن الكاتب "المتفاعل" جرب حظه، وصال، وجال وخاض غمار التاريخ، والفلسفة، لينتهي في الأخير إلى لاشيء (شاهد ما قلش حاجة). فهو في الصفحات الأخيرة من كتابه يكتشف " أن الحداثة غريبة المنشأ، كونية التأثير، وأنه لا مناص من اعادة بناء "منظومة العلوم الإسلامية" على أسس جديدة "ملائمة لظروف العصر وقيمه".

ولسبب ما، يقفل الكاتب بحثه على نص مغمور بالتفاؤل لمستقبل الإسلام على "رغم جسامة العقبات والتحديات التي تنتظر المسلمين".

فالباحث كما يبدو يراهن على "الوعي الإسلامي الجديد" كما قال غيره، الذي يبشر بأن "طريق المستقبل مفتوحة" شرط أن تنبذ الأوهام والعقلية الإقصائية" و "الثقة بالنفس والعمل الدؤوب".

هذه هي الفقرة الأخيرة من نهاية الكتاب الصادر حديثاً عن دار الطليعة في بيروت، أما في بدايته. فالكاتب يخص بالشكر الجزيل لكل من ساعده على "إنجاز هذا العمل" وخصوصاً المسؤولين عن "معهد الدراسات المتقدمة في عاصمة ألمانيا برلين.